"الوحدة الدلالية والتعالق النصّي عند عبد القاهر الجرجاني (471 هـ)".

د. عبد الرحمان إكيدر
جامعة القاضي عياض - المغرب

الملخص :

ستركز هذه الدراسة على إبراز أهمية "التعليق" في تشكل الوحدة الدلالية، من خلال تضافر المعاني الجزئية المشــكلة للنص، وهو ما عبّر عنه عبد القاهر الجر جاني ب"محصــول التعلق"، إذ إن صورة المعنى لا تتبين إلا بالبناء المكتمل والمنتظم وفق نسق معين، ذلك أن عزل أو إســقاط أي عنصــر لغوي قد يؤدي إلى الإخلال بالغرض الذي يرومه المتكلم. ولقد أشار الجرجاني إلى أن أساس المزية مراعاة القوانين التركيبية وتعلق معاني الألفاظ وحسن اتساقها.

Abstract :

This study on showing of importance will concentrate " The Relevance " In formation of the semantic unity, through the combination of the partial meanings of the text. and he what slave crossed him mighty Al-Jurjani in "Output of the relevance", since the image of the meaning can not be seen except by the complete and systematic construction in a certain format. The isolation or omission of any linguistic element may interfere with the purpose of the speaker. Al-Jarjani pointed out that the basis of the advantage is the observance of the structural laws and the meaning and consistency of the meanings of the words.

-تقديم :

لقد احتفى الجرجاني بالمعنى وأولاه قيمة عليا في العملية الدلالية، وهذا جلي لمن يقرأ كتاباته بتأمل وأناة. فقد اعتبر أن المعنى هو مجموع تلك العلاقات اللفظية والمعنوية القائمة بين الكلمات وما تدل عليه، وبيّن أن الفائدة المرجوة من اللغة لا تتحقق في الألفاظ المفردة، وإنما تتحقق عن طريق تعليق المعاني بعضها ببعض، وفق ضوابط محددة وقواعد نحوية معينة؛ فالكلمة الواحدة أو حتى الجملة الواحدة لا تفصح عن معناها إلا بتعلق معناها بمعنى جاراتها، ويتحدد بذلك المعنى الدلالي المراد من تلك الجملة أو ذلك النص، وهنا نكون بصدد الحديث عن الوحدة الدلالية باعتبارها عاملا حاسما في تحديد النصية.

لقد أشار فرديناند دو سوسير Ferdinand De Saussure (1857 – 1913م) إلى "أن القاعدة العامة أننا لا نتحدث بدلالات ومعان منعزلة، بل نتحدث بواسطة مجموعة منتظمة من المعاني"[1]. وقد أكد الباحثون في علم لغة النص على أهمية البعد الدلالي، وأن أفضل ما يُنظر للنص على أنه وحدة دلالية، وهي وحدة ليست في الشكل بل في المعنى المتحصّل من توالي الكلمات في السياق.

وستركز هذه الدراسة على إبراز أهمية "التعليق" في تشكل الوحدة الدلالية، من خلال تضافر المعاني الجزئية المشكلة للنص، وهو ما عبّر عنه عبد القاهر بـ"محصول التعلق".

1- مفهوم الوحدة الدلالية :

لقد عبّر عدد من النقاد والبلاغيين العرب القدامى عن أهمية الترابط الدلالي بين أجزاء النص سواء أكان نثرا أم شعرا، وعدّوه شرطا لتحديد سمات القول البليغ، فتحدثوا عن الأسباب التي تجعل من النص بناء متراصا يحمل في طياته معنى محددا، ومن ذلك حسن الصياغة، وتجاور الكلمات والجمل، وانتظام معانيها، واتصال الكلام فيها، وتعلق بعضها ببعض، حتى يصبح النص كالسبيكة الواحدة أو كالكلمة الواحدة، ومن هؤلاء النقاد نذكر على سبيل المثال محمد أحمد بن طباطبا العلوي (ت 322 هـ/ 934 م) حيث يقول : "وأحسن الشعر ما ينتظم فيه القول انتظاما يتسق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله (...) بل يجب أن تكون القصيدة كلها كلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها، نسجا وحسنا وفصاحة وجزالة ألفاظ ودقة معان وصواب تأليف، ويكون خروج الشاعر من كل معنى يضيفه إلى غيره من المعاني خروجا لطيفا، على ما شرطناه في أول الكتاب، حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراغا، كالأشعار التي استشهدنا بها في الجودة والحسن واستواء النظم، لا تُناقُضَ في معانيها، ولا وَهْيَ في مبانيها، ولا تكلف في نسجها، تقتضي كل كلمة ما بعدها، ويكون ما بعدها متعلقا بها مفتقرا إليها"[2].

لقد أشار ابن طباطبا في هذا النص إلى الأدوات الكفيلة بصناعة الشعر والشروط التي تجعل من القصيدة نصا متراصا محكم البنيان، تتآلف فيه الأبيات وتتجانس لفظا ومعنى.

لقد اعتنى الجرجاني بالمعنى وعدّه جوهر عملية تأليف الكلام وإتقانه، كما أكد أنّ كل عنصر من عناصر التركيب هو عنصر اقتضاه النظم، إذ لا يحصل المتلقي على المعنى

والدلالة إلا عند آخر عنصر من عناصر الكلام، وإن قطعتَ منه كلمة - بل حرفا - لاختل المعنى، إنه أشبه بصرح محكم البناء كل لبنة فيه لها دور في تشييد هذا الصرح. وقد عدّ المعنى بناء لغويا تتعلق فيه الكلمات، ويرتبط بعضها ببعض، حيث يوضع في النفس وضعا واحدا، فصورة المعنى لا تتبين إلا بالبناء المكتمل والنظر إليه نظرة كلية واحدة.

إن الوحدة الدلالية[3] للنص تستوجب مراعاة التعليق بين معاني الكلمات، والذي يعتمد أيضا على الخضوع لعدد من الأنماط التركيبية التأليفية بين هذه الكلمات وفق ضوابط التعليق المبنية على توخي معاني النحو وأحكامه، والموافقة لمقتضى الفكر والعقل، إذ "لا يكون الإتيان بالأشياء بعضها في أثر بعض على التوالي نسقا وترتيبا، حتى تكون الأشياء مختلفة في أنفسها، ثم يكون للذي يجيء بها مضموما بعضها إلى بعض غرض فيها ومقصود، لا يتم ذلك الغرض وذاك المقصود إلا بأن يتخير لها مواضع، فيجعل هذا أولا، وذاك ثانيا؟ فإن هذا ما لا شبهة فيه على عاقل"[4].

فلا يجوز أن تأتي الكلمات متجاورة ومتراصة دون نسق، ودون خضوع لتلك الشروط التركيبية التي هي طرق التعليق وضوابطه. والإخلال بنسق توالي الكلمات في النص والنظام الذي بنيت عليه هو إخلال بدلالة النص، والذي قد يؤدي إلى الغموض أو المحال. يقول صاحب الأسرار في هذا الصدد : "فلو أنك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عداً، كيف جاء واتفق، وأبطلت نضده ونظامه الذي عليه بني، وفيه أفرغ المعنى وأجري، وغيرتَ ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد ما أفاد، وبنسقه المخصوص أبان المراد (...) أخرجته من كمال البيان إلى مجال الهذيان. نعم، وأسقطت نسبته من صاحبه، وقطعت الرحم بينه وبين منشئه"[5]. ومثال ذلك تغيير نسق توالي الكلمات في صدر بيت امرئ القيس (نحو 80 ق.هـ/ 545 م) :

من : (قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمنزلِ)[6]. (بحر الطويل)

إلى : (منزل قفا ذكرى من نبك حبيب).

فهي كلمات متراصة لا غير، تخطت الأحكام النحوية والأعراف اللغوية، حيث اختل تعلق الألفاظ بعضها ببعض، وغاب معه المعنى، بل وقطعت صلة البيت بصاحبه. يقول محمد حماسة عبد اللطيف : "التعليق بين الكلمات هو الذي يكسب الجملة معناها، أما الكلمات الحرة، أو المستقلة فلن تكون كذلك، وإن بدا بعض أنواع الشعر الحديث كذلك، أي كلمات متجاورة، على المتلقي أن يركبها بطريقته الخاصة ليقيم بينها نوعا من العلاقة تكسبها معنى"[7].

فأساس صحة الجمل، الاحتواء على معنى معين وحصول الفائدة من مجموع الكلمات، ويعد هذا المبدأ من أبرز ما توصل إليه عبد القاهر، فالمفهوم من مجموع كلمات الجملة هو مفهوم واحد، لا عدة معان، إن المعنى المستفاد هو محصول التعلق الناتج عن اتباع طرق تعليق الكلم المعلومة، وتوخي معاني النحو بين الألفاظ. والفصل بين مكونات الجملة، أو إسقاط لفظ من الألفاظ، أو تغيير ترتيبه، يغير المعنى لا محالة، بل قد يؤدي إلى اختلاله.

إن المعاني الجزئية لكل جملة تتفاعل وتتضافر لتحقيق هدف معين وهو إبراز وحدة المعنى وتمام الدلالة في النص ككل، وهذا ما يسعى المتكلم إيصاله إلى المتلقي من خلال نظمه هذه المعاني، ف"إذا قلت: «ضرب زيد عمرا يوم الجمعة ضربا شديدا تأديبا له»، فإنك تحصل من مجموع هذه الكلم كلها على مفهوم، هو معنى واحد لا عدة معان، كما يتوهمه الناس، وذلك لأنك لم تأت بهذه الكلم لتفيده أنفس معانيها، وإنما جئت بها لتفيده وجوه التعلق التي بين الفعل الذي هو «ضرب»، وبين ما عمل فيه، والأحكام التي هي محصول التعلق"[8].

لقد عرَض الجرجاني مجموعة من الشواهد مبينا طرق التعليق فيها، وبيّن أن البيت كله نتيجة لهذا التعليق يصبح جزءا واحدا، ولا تتمّ دلالته وتتضح إلا عند آخر عنصر منه؛ ذلك أن طرق التعليق في مثل هذا أعطت لكل كلمة وظيفتها وحددت لها دورها من حيث ارتباط ثان بأول، وهذا ما يوجب معه أن تمتد نظرة القارئ على كل وحدات التركيب.

لقد شبّه عبد القاهر هذا المبدأ بعدد من الصناعات[9]، فالقلادة على سبيل المثال؛ هي مجموع الجواهر المكونة لها والمنتظمة في خيط ناظم، حيث تكتسي بهاء من خلال ذلك الرصف المتقن على وجه مخصوص، والتي تقع في النفس موقعا واحدا، ولا يمكن تذوق جماليتها وبهائها إلا من خلال نظرة شاملة، وكل جزء منها يتكامل مع الآخر من خلال علاقات منتظمة بحس مرهف تنم عن خبرة صانعها ومبدعها. كذلك حال النص، فهو صرح من أجزاء تتفاعل فيما بينها وتتضافر، وتتماسك فيها الكلمات والجمل والمعاني الجزئية عن طريق تعلق بعضها ببعض، ليُكشف في الأخير عن المعنى الكلي، وأساس هذا التفاعل العلاقات التركيبية النحوية بين مختلف مكونات النص، إذ تحكمها علاقات سياقية تجعلها سلسلة متصلة الحلقات شديدة التماسك إذا انتزعت منها حلقة زال ذلك التماسك، وتصدّع البناء، وانفصم المعنى وتعدّد، والتبس على متلقيه.

2- نحوُ التعليق ومحصول التعلق :

لعل من أهم النظريات النحوية الحديثة التي انكبت على دراسة محصول التعلق والعلاقات الناتجة عن تضافر الكلمات داخل الجمل، نموذج "لوسيان تسنير" Lucien Tesnière (1954 م) المسمى (بنحو التبعية) Grammaire de Dépendance أو (نحو التعليق) كما ترجمه سعيد حسن بحيري، والذي يَعتبر هذا النموذج من أقرب النماذج للنحو العربي، والذي لقي انتشارا واسعا في الأنحاء العلمية والكتب اللغوية[10]، إذ ترتبط الكلمات فيما بينها ارتباطا بنيويا وثيقا مبنيا على علاقات تبعية ينتج عنها معنى معين واحد.

ف"عندما أقول : «ألفريد يتكلم» لا أتوقع القول من جهة أن «هناك رجلا اسمه ألفريد» ومن جهة أخرى أن «شخصا ما يتكلم»، لكن أفهم من كل هذا بأن «ألفريد يقوم بحدث الكلام»،

وأن «الذي يتكلم هو ألفريد». والنتيجة المترتبة عن ذلك أن جملة «ألفريد يتكلم» لا تتكون من عنصرين فقط:

1- ألفريد. 2- يتكلم.

وإنما من ثلاثة عناصر : 1- ألفريد. 2- يتكلم.

3- الارتباط الذي يجمعهما والذي بدونه لا وجود للجملة"[11].

وقد أشـــار الجرجاني إلى أن المدلول من «ضـــرب زيـد» هو "معنى يعترض في هـذين المذكورين أحدهما مع الآخر نحو أن تقول : «ضـرب زيد»، فيأتلف الفعل مع الاسـم ويحصـل بائتلافهما فائدة لا نعقلها من كل واحد منهما على الانفراد، ثم تعْثُر تلك الفائدة معان وأوصاف كالنفي في قولك : (ما ضرب زيد)، والاستفهام في قولك : (أضرب زيد؟) فالنفي كما ترى معنى اعتراض على الفعل والاسم بعد ائتلافهما"[12].

و بالعودة لمثال لوســيان تســنير، فإن لفظ (ألفريد) يتعلق بالفعل (يتكلم)، والعلاقة الأساسية للتبعية بين مفاهيم الجملة هي علاقة الإسناد، حيث يوضع الفعل (يتكلم) بوصفه أعلى ركن من جهة التدرج في المقدمة يتبعه الركن الآخر (ألفريد)، وفق نموذج التبعية (1) :

يتكلم (المتعلق به) Parle (Régissant)

|

ألفريد (المتعلق/التابع) Alfred (Subordonné)

فالعناصر المركزية العليا في الجملة هي الأفعال التي يتطور عنها تكوين التبعية، وقد أشار **تســنير** إلى أن "اللفظ قد يكون في الآن نفســه متعلقا بلفظٍ ومتعلقٌ به لفظ آخر، كما في الجملة : «صـديقي يتكلمMon ami parle» فضـمير المتكلم (أنا) يتعلق باللفظ (صـديق)، الذي يتعلق بدوره بالفعل (يتكلم)، وفق نموذج التبعية:

(2)

يتكلم — Parle

|

صديق — ami

|

أنـا — mon"[4]

إن محصول تعلق هذه الكلمات بعضها ببعض وتسلسلها هو ما يكون هذه الجملة. ويضيف تســنير إلى أنّ "المتعلق لا يتبعه إلا متعلق به واحد، بخلاف المتعلق به الذي يمكن أن يعمل في عدد من المتعلقات، مثاله:

(Mon vieil ami chante cette jolie chanson).

(صديقي القديم يغني هذه الأغنية الجميلة).

وكل متعلق به يعمل في متعلق أو متعلقات يُكون ما نسـميه عقدة"[13]. ويشـير كارل - ديتر بونتنج Karl-Dieter Bünting إلى أن "العقدة لها وظيفة دلالية أيضـا فيطلق عليها نواة Nukleus، ويمكن في إطار وجهات نظر شـكلية محضـة أن تتطور أبنية التبعية انطلاقا من شـيء آخر أيضـا غير الفعل، وهكذا تقدم الأدلة إلى حد ما أيضـا على أنه يمكن أن تكون للصـفات أوجه تكافؤ (قوة)، مادامت تتطلب مكملات في حالة إعرابية معينة، مثل : (كون الشيء ذا قيمة)، و(كونه مشابها لشخص ما)، و(ضاق بشيء ...) إلخ[14].

وبالعودة إلى المثال الذي قدمه عبد القاهر الجرجاني نجد أن الفعل «ضـرب» في «ضـرب زيد عمرا يوم الجمعة ضربا شديدا تأديبا له» يتعلق بكل عناصر الجملة التي عمل فيها، فهو يمثل عقدة رأسها الفعل (ضرب) إضافة إلى متعلقات هذا الفعل، وهي على التوالي : الفاعل (زيد)، والمفعول به (عمرا)، والمفعول فيه (يوم الجمعة)، والتوكيد (ضربا شديدا)، والمفعول لأجله (تأديبا له). فالجملة السـابقة تتكون من جملة نواة (ضـرب زيد عمرا) إضـافة إلى مجموعة من العناصـر اللغوية التقييدية التخصـيصـية للحدث، والتي ترتبط فيما بينها من خلال علاقات تعليقية، وتتمثل في الظرفية والتحديد والتوكيد والغائية والنسـبة والتبعية، وهذه العناصر كلها تتصل بالرأس (ضرب) وتتكامل من أجل خلق معنى واحد هو محصول تلك التعلقات مجتمعة. ذلك "أن «عمرا» مفعول لضرب وقع من «زيد» عليه، و«يوم الجمعة» زمان لضـرب وقع من زيد، و«ضـربا شـديدا» بيان لذلك الضـرب كيف هو وما صـفته، و«التأديب» علة له وبيان أنه كان الغرض منه. وإذا كان ذلك كذلك، بان منه وثبت، أن المفهوم من مجموع الكلم معنى واحد لا عدة معان، وهو إثباتك زيدا فاعلا ضربا لعمرو / في وقت كذا، وعلى صـفة كذا، ولغرض كذا، ولهذا المعنى تقول إنه كلام واحد"[15]. ويمكن تفصيل ما سبق ذكره وفق الخطاطة الآتية :

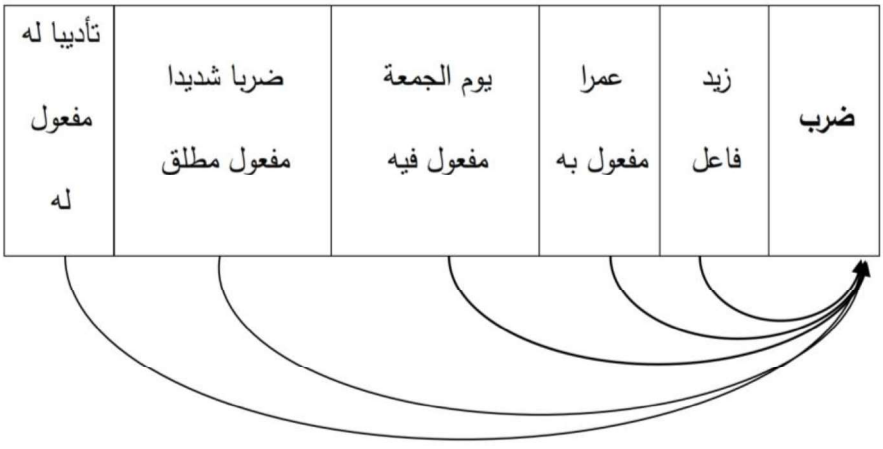

يُلاحظ من الخطاطة السابقة، أن عناصر الجملة يتصل بعضها ببعض اتصالا مباشرا، إذ تتوالى تلك العناصر وفق ترتيب نسقي وسياق لغوي مناسبين، "فالمعنى اللغوي الذي هو محصـــول التعلق جاء ثمرة اتباع طرق التعليق بين الكلم، وتوخي معاني النحو بين مفردات اللغة، فجاء معنى واحدا لا عدة معان، ولا يمكن الفصل بين أجزائه، فما حصل عليه السامع هو ذلك المعنى ككل، وإن جزّأه اللغويون في تحليلهم النحوي فهذه قضية أخرى وجانب آخر في الدرس اللغوي"[16].

ويضـــيف البدراوي زهران في الســـياق ذاته أن الدلالة جاءت "نتيجة لوجوه التعلق، والأحكام التي هي محصول التعلق، على الرغم من أهمية معاني المفردات إلا أنها ليست هي الدلالة. فمحال أن تخاطب شـــخصـــا بمفردات لا يعرف هو معانيها كما تعرف، ولكنك تتوخى ترتيبا خـاصـــا في اللغـة تلائم بينـه وبين الموقف المخبر عنـه"[17]. ويُعرّف دي بوجرانـد De R. Beaugrande (2008 م) هـذا النموذج بـ«التنـاول التعليقي» مقـدمـا مثـالا يُبرز علاقـة التبعية، حيث تتعلق بعض العناصر اللغوية ببعضها الآخر، من خلال الجملة الآتية :

(A great black and yellow rocket stood in the desert)

(كان صاروخ كبير أسود وأصفر اللون منتصبا في الصحراء).

يُعلِّق دي بوجراند على هذه الجملة بقوله: "فكل من يسمع هذه الجملة أو يقرؤها يلاحظ تواأن بعض عناصرها فحسب يتصل اتصالا مباشرا بالبعض الآخر فيعتمد بعضه على بعض في البنية السـطحية، ففي (yellow rocket) اتصـل المخصـص (modifier) بالرأس (head)، ولكن المخصصات الأخرى وهي (great)، و(black) تبعد عن الرأس نوعا ما. وأما أداة التعيين (a) فهي بعيدة كذلك. هذه الحقائق الواضـــحة ذات نتائج مهمة بالنســـبة للإجراء؛ فمجرد التوالي على السطر أساس سيئ لإنتاج النصوص وفهمها، أما التركيب الحاسم فيشمل بدلا من ذلك على وصـلات واضـحة للتعبير عن علاقة التبعية، ويظهر من الشـكل رقم (1) كيف للاتصال المباشر أن يُفرض على هذا النموذج"[18].

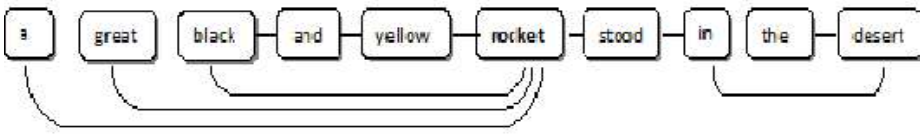

المخصص المخصص المخصص الرأس الشكل (1)

ويعتبر دي بوجراند أن المخصصات Modifiers في الشكل(1) تتفاوت في البعد عن الرأس، ولكي يُبرز تبعيتها للرأس بشكل متحد، اقترح الباحث نمطا آخر (الشكل 2)[19]، تتحول فيه

الوصلات النحوية إلى شبكة (Network):

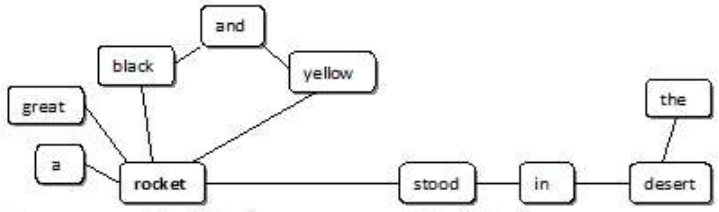

الشكل (2) رأس المركب الإسمي رأس المركب الفعلي

إن هذا الارتباط بين الرأس وباقي المخصصات هو الذي يُسهم في خلق تماسك النص ووحدة موضوعه، من خلال استلزام العناصر اللغوية بعضها بعضا، مراعية في ذلك طرق تعليق الكلم المعلومة، فتتلاحم المعاني الجزئية لتوليد معنى كلي بوصفه بنية كلية كبرى، ويؤدي الفصل بين الأجزاء إلى عدم وضوح النص، كما يؤدي عزل عنصر من عناصره أو إسقاطه إلى الإخلال بالغرض الذي يقصده المتكلم ويرومه.

يُعلِّق عبد القاهر الجرجاني على بيت شعري للفرزدق:

وَمَا حَمَلَتْ أُمٌّ امْرِئٍ فِي ضُلُوعِهَا أَعقَّ مِنَ الجَانِي عَلَيْهَا هِجَائِيَا[20] (بحر الطويل)

"إنه لا تتبين لك صورة المعنى الذي هو معنى الفرزدق، إلا عند آخر حرف من البيت، حتى إن قطعت عنه قوله «هجائيا» بل «الياء» التي هي ضمير الفرزدق، لم يكن الذي تعقله منه مما أراده الفرزدق بسبيل، لأن غرضه تهويل أمر هجائه، والتحذير منه، وأن من عرَّض أمه له، كان قد عرَّضها لأعظم ما يكون من الشر"[21]. فكلمات البيت ترتبط فيما بينها منتجة نصّا يحوي معنى لا يحصل إلاّ من خلال تعلّق معاني كل تلك الألفاظ مجتمعة.

ومن الأمثلة الأخرى التي ساقها عبد القاهر الجرجاني، بيت بشار بن برد (168 هـ/ 784 م):

كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهْ[22]. (بحر الطويل)

يقول صاحب الدلائل إن "بيت بشار إذا تأملته وجدته كالحلقة المفرغة التي لا تقبل التقسيم، ورأيته قد صنع في الكلم التي فيه ما يصنعه الصانع حيث يأخذ كِسَرا من الذهب فيذيبها ثم يصبها في قالب، ويخرجها لك سوارا أو خلخالا، وإن أنت حاولت قطع بعض ألفاظ البيت عن بعض، كنت كمن يكسر الحلقة ويفصم السوار، وذلك أنه لم يرد أن يشبه «النقع» بالليل على حدة، و«الأسياف» بالكواكب على حدة، ولكنه أراد أن يشبه النقع والأسياف تجول فيه بالليل في حال ما تنكدر الكواكب وتتهاوى فيه، فالمفهوم من الجميع مفهوم واحد، والبيت من أوله إلى آخره كلام واحد"[23].

فبيت بشار كالسبيكة الواحدة؛ تتحد فيها معاني الألفاظ، ويندمج بعضها في بعض، إذ لابد فيها من بناء ثان على أول، ورد تال إلى سابق، ولا يتحدد معنى البيت إلا عند آخر كلمة، خصوصا وأن هذا البيت يتضمن تشبيها معلقا بمجموع الجملتين المكونتين للبيت الشعري،

فإذا ذكرت الجملة الأولى دون الثانية صارت الجملة بذلك بمنزلة الاسم المفرد في امتناع أن تحصـــل به الفائدة، وما جعل البيت متماســكا ووحد معناه تعلق معاني ألفاظه واتحادها وانتظامها في السـياق، و"إذا نظرنا لم نجدها اتحدت إلا بأن جعل «مثار النقع» اسـم «كأن»، وجعل الظرف الذي هو «فوق رؤوسـنا» معمولا «لمثار» ومعلقا به، وأشـرك «الأسـياف» في «كأن» بعطفه لها على «مثار»، ثم بأن قال : «ليل تهاوى كواكبه»، فأتى بالليل نكرة، وجعل جملة قوله : «تهاوى كواكبه» له صـــفة، ثم جعل مجموع : «ليل تهاوى كواكبه» خبرا «لكأن»[24].

ويبين الشكل (1) أسفله التناول التعليقي لبيت بشار بن برد :

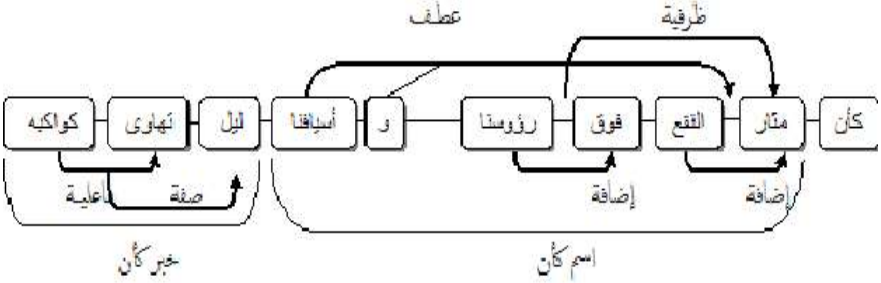

الشكل (1)

ويمكن إخضاع ترسيمة التناول التعليقي لبيت بشار لترسيمة الشبكة Network وفق الشكل (2) :

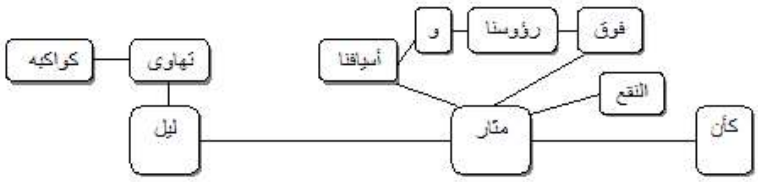

الشكل (2).

لقد عد الجرجاني (محصـــول التعلق) نتاج عملية تعلق معاني الكلمات بعضـــها ببعض، مما يجعل التركيب مترابطا كما تبين في بيتي الفرزدق وبشـــار، وهذا التعلق هو الذي يحدد معنى البيت ويجعله كالسبيكة الواحدة.

3- التناول التعليقي:

يمكن تطبيق نموذج "التناول التعليقي" عند عبد القاهر الجرجاني على نصـــوص مكونة من متتالية من الجمل، وسـنقدم في هذا الإطار بعضـا من هذه النصـوص مبرزين ما قدمه

من تحليل من خلال رصـــده للعلاقات النحوية والدلالية بين الألفاظ والجمل المكونة لهذه النصوص، وما تتضمنه من معنى كلي يكشفه كل نص على حدة، والذي ليس إلا محصول تعلق الألفاظ والجمل بعضها ببعض، وبه يفضل بعض الكلام على بعض ويرتقي منزلة.

1- النموذج الأول :

قال تعالى : [وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَـمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِـيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ][25].

يشـير عبد القاهر إلى أن المزية في هذه الآية الكريمة راجعة بالأسـاس إلى تعلق معاني الألفاظ وإلى "ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأن لم يعرض لها الحسن/ والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة، وهكذا إلى أن تسـتقريها إلى آخرها = وأن الفضل تناتج ما بينها، وحصل من مجموعها"[26]. إن هذا الفضل وتلك المزية إنما أساسهما مجموع العلاقات التي تجمع كلمات هذا النص في السـياق مما يجعله محط اهتمام علماء البلاغة لما يتضـمنه من إعجاز بياني وحسـن سـبك مكوناته، فكلماته تتآلف فيما بينها فأصبحت كالجسد الواحد والآجر المتماسك يشد بعضه بعضا.

يتمحور هذا النص حول قصـة الطوفان الذي حل بقوم نوح وما خلفه من خراب ودمار، وهو أيضـا تذكير لقريش لأخذ العبرة وتقدير العواقب، وقد جاءت جمل النص قصـيرة متلاحقة وسريعة تتناسب وسرعة الأحداث في الطوفان. لقد افتتح النص بفعل يدل على أمر بصيغة المبني للمجهول إشارة إلى اللّه عز وجل، ويمثل هذا الفعل رأس عقدة يتفرع عنها مجموعة من العقد التي تتصل فيما بينها عبر سلسلة تعالقات، وهذا ما يبينه الشكل أسفله :

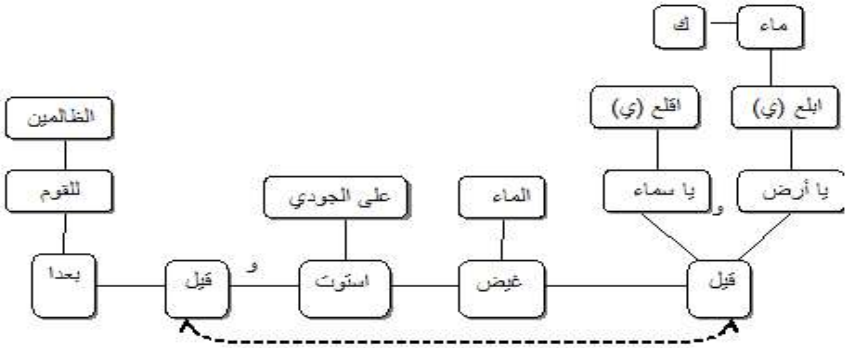

فكل كلمة من الآية موضـوعة مع أختها مقرونة بلفقها، ف"هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت، لأدت من الفصـاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية؟ قل : «ابلعي»، واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وما بعدها، وكذلك فاعتبر سـائر ما يليها"[27].

ويبيّن عبد القاهر أن مبدأ العظمة في هذه الآية أســاســه مراعاة القوانين التركيبية وتعلق معاني الألفاظ وحسن اتساقها.

2- النموذج الثاني :

قال اللّه عز وجل : [إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ][28].

يُعلِّق صاحب الأسرار على الآية الكريمة بقوله: "ألا ترى (...) كيف كثرت الجمل فيه؟ حتى إنك ترى في هذه الآية عشر جمل إذا فصلت، وهي وإن كان قد دخل بعضها في بعض حتى كأنها جملة واحدة، فإن ذلك لا يمنع من أن تكون صور الجمل معنا حاصلة تشير إليها واحدة واحدة، ثم إن الشبه منتزع من مجموعها، من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض، وإفراد شطر من شطر، حتى إنك لو حذفت منها جملة واحدة من أي موضع كان، أخل ذلك بالمغزى من التشبيه"[29].

فهذا النصّ مكون من عشْــر جمل متلاحمة فيما بينها ومرتبة داخل الآية ترتيبا مخصوصا حيث تتعالق فيها الألفاظ بعضها ببعض، وترتبط فيها الجمل العشر ارتباطا وثيقا بروابط شــكلية كحروف العطف، وروابط منطقية كالســببية والشــرطية، وأخرى دلالية مستفادة من التشبيه الذي بني عليه هذا النص.

1- **إنما مثل** الحياة الدنيا. (القصر + التمثيل)
2- **كـ**ماء أنزلناه من السماء. (التشبيه)
3- **فـ**اختلط به نبات الأرض. (العطف بحرف الفاء)
4- **مما** يأكل الناس والأنعام. (الربط بما الموصولية)
5- **حتى إذا** أخذت الأرض زخرفها (الغائية + الشرط)
6- **و** ازينت. (العطف بحرف الواو)
7- **و** ظن أهلها أنهم قادرون عليها. (العطف بحرف الواو)
8- أتاها أمرنا ليلا أو نهارا . (جواب الشرط)
9- **فـ**جعلناها حصيدا. (العطف بحرف الفاء)
10- **كأن** لم تغن بالأمس. (التشبيه)

فلفظ (الحياة) مضــاف إليه متعلق بـ(مثل)، و(الدنيا) صــفة متعلقة بـ(الحياة)، و(كالماء) متعلقان بالخبر المحذوف الذي مبتدؤه (مثل)، و(أنزلناه) الفاعل والمفعول متعلقان بالفعل (أنزل)، والجملة الفعلية صــفة متعلقة بـ(ماء)، و(من الســماء) متعلقان بأنزلناه، وجملة (فاختلط به نبات الأرض) متعلقة بالعطف بالجملة الســابقة. وجملة (يأكل الناس والأنعام) صلة متعلقة بـ(ما) الموصولية، و(إذا) أداة شرط تعلق جملة الشرط (أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها) بجملة جواب الشــرط (أتاها أمرنا ليلا أو نهارا). وفي

جملة الشرط تعالقت ثلاث جمل بالعطف (أخذت الأرض زخرفها – ازينت – ظن أهلها أنهم قادرون عليها). وجملة (جعلناها حصيدا) متعلقة بالعطف بجملة جواب الشرط ...إلخ.

إن هذا الارتباط المتين بين هذه الجمل جعلها كأنها جملة واحدة منتجة بذلك معنى كليا وشاملا للنص، فلا يمكن بذلك فصل جملة عن باقي الجمل، أو حتى فصل لفظ عن بقية الألفاظ، أو تغيير نسقها وترتيبها الذي انتظمت فيه داخل سياقها اللغوي، لأن كل معنى من المعاني الجزئية متعلق ومبني على المعنى الذي يليه.

النص الذي استشهد به عبد القاهر، هو مثال ساقه اللّه تعالى لمتاع الدنيا الزائل الذي ينتفع به الإنسان كناية على هذا النبات في نضارته ثم مصيره إلى الحصد والزوال. لقد افتتحت الآية بصيغة القصر (إنما) لحصر وتأكيد المقصود من التشبيه وهو سرعة الانقضاء وجاءت الجمل متعلق بعضها ببعض لتفيد المغزى المراد به من الآية، فتناسلت المعاني الجزئية لكل جملة مع الجمل اللاحقة، مما زاد من إحكام النسج وشدة الحبك، فلا يكتمل معنى التشبيه إلا عند آخر جملة من جمل الآية، ولا يظهر إعجازها وحسن نظمها ومزيتها إلا باستقراء النص كاملا.

إن النص مكون من شبكة من العقد، تحتل فيها الألفاظ : «الحياة الدنيا»، و«الماء»، و«نبات»، و«الأرض» رؤوسا لهذه العقد والتي يتعلق بها عدد من الألفاظ. والملاحظ أن هذه الرؤوس تشكل مفاتيح هذا النص، وتشكل أيضا، أطراف التشبيه المعقود في النص :

الحياة الدنيا = ماء ⟸ نبات ⟸ الأرض.

- **خاتمة :**

تستوجب الوحدة الدلالية للنص مراعاة "التعليق" بين معاني الكلمات، فلا يجوز أن تأتي الكلمات متجاورة متراصة دون نسق، والإخلال بنسق توالي الكلمات في النص والنظام الذي بنيت عليه هو إخلال بدلالة هذا النص، كما أن عزل أو إسقاط أي عنصر لغوي قد يؤدي كذلك إلى الإخلال بالغرض الذي يرومه المتكلم. ولقد أشار الجرجاني إلى أن أساس المزية مراعاة القوانين التركيبية وتعلق معاني الألفاظ وحسن اتساقها، فالمعاني الشريفة اللطيفة لا بد فيها من بناء ثان على أول، ورد تال إلى سابق، حيث تتناسل المعاني الجزئية لكل جملة مع الجمل اللاحقة مما يزيد من إحكام النسج وشدة السبك.

فمن خلال النماذج المقدمة يتبين أن السياق اللغوي للنص يتألف من عناصر تفيد معانيَ محددة، والتعليق بين معاني الكلم هو الذي يقود إلى تشكل المعنى الدلالي من خلال تفاعل المعنى المعجمي للألفاظ مع القوانين النحوية التي تحكمها، فلا يمكن تخيل معنى دلالي للنص دون استحضار تعلق معاني الألفاظ والجمل المكونة له، وهو ما عبّر عنه عبد القاهر بـ"محصول التعلق"، والذي من خلاله تتوثق عرى النص، وترتبط مكوناته، وتلتحم أجزاؤه، وتتماسك عناصره مسفرة عن وحدة دلالية للنص، تحُول دون انقطاع أجزائه وتشتت أوصاله مما يضمن تلك الاستمرارية المعنوية.

- **الهوامش :**

[1] Ferdinand De Saussure, Cours de Linguistique Générale, Grande Bibliothèque Payot, Paris, 1995, p 177.

[2] ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر، تحقيق : عبد العزيز بن ناصر المانع، د.ط، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، 1985، ص 213.

[3] اختلف الباحثون في تحديد مفهوم الوحدة الدلالية بين من يعتبرها الوحدة الصغرى للمعنى، ومن يعتبرها هي النص برمته.

(انظر : أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ط 5، عالم الكتب، القاهرة، 1998، ص 31).

[4] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قراءة وتعليق : محمود محمد شاكر، ط 3، مطبعة المدني، جدة، 1992، ص 473.

[5] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، قراءة وتعليق: محمود محمد شاكر، ط 1، دار المدني، جدة، 1991، صص 4 - 5.

[6] وشطره الثاني : بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ.

انظر : ديوان امرؤ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 5، ذخائر العرب، دار المعارف، القاهرة، (د.ت)، ص 8.

[7] محمد حماسة عبد اللطيف، النحو والدلالة مدخل لدراسة المعنى النحوي – الدلالي، ط 1، دار الشروق، القاهرة، 2000، ص 12.

[8] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 413.

[9] إن المتتبع لكتابات عبد القاهر الجرجاني، يلاحظ مدى تأثره ببيئته التي شهدت فيها الصناعة بمنطقة جرجان ازدهارا ملحوظا خلال القرن الخامس الهجري، حيث ربط عبد القاهر نظريته في النظم بعدد من الحرف التي تتطلب دراية وحذاقة وأستاذية، وهو تشبيه يتوخى منه تقريب نظريته للمتلقي ليستوعبها وليتمكن من فهمها.

ومن تلك الصناعات نذكر :

- النسج والحياكة : الديباج، الابريسم، الأصباغ، الثوب، الخيوط، الغزل ... إلخ.

- الصناعات المعدنية : الفضة، الذهب، السوار، الخاتم، الحلي، النقوش، المادة الخام ...إلخ.

[10] انظر: كارل - ديتر بونتنج، المدخل إلى علم اللغة، ترجمة وتعليق: سعيد حسن بحيري، ط 1، مؤسسة المختار، القاهرة، 2003، ص 192.

وفيه أشار المترجم إلى التقارب الحاصل بين نظرتي (نحو التعليق)، و(نظرية النظم) عند عبد القاهر الجرجاني، يقول سعيد حسن بحيري في هذا الإطار: "وبعد دراسة عميقة لنظرية الجرجاني أحسست أن مصطلح "تعليق" يمكن أن يضاف هنا أيضا".

[كارل - ديتر بونتنج، المدخل إلى علم اللغة، ص 192، الهامش رقم : 1].

[11] Lucien Tesnière, Éléments de Syntaxe Structurale, 2eme édition, 3eme tirage, Paris, Editions Klincksieck , 1976, p 11.

[12] عبد القاهر الجرجاني، المقتصد في شرح رسالة الإيضاح، تحقيق : الشربيني شريدة، د.ط، دار الحديث، القاهرة، 2009، ج 1، ص 124.

[13] Ibid, p 14.

[14] كارل - ديتر بونتنج، المدخل إلى علم اللغة، ترجمة وتعليق : سعيد حسن بحيري، ط 1، مؤسسة المختار، القاهرة، 2003، صص 197 – 198 .

[15] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ص 413 - 414.

[16] البدراوي زهران، عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني المفتن في العربية ونحوها، ط 1، دار العالم العربي، القاهرة، 2009، ص 204.

[17] نفسه، ص 205.

[18] دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة : تمام حسان، ط 2، عالم الكتب، القاهرة، 2007. ص 142.

[19] نفسه، ص 143.

[20] شرح ديوان الفرزدق، ضبط وشرح : إليا الحاوي، ط 1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1983، ج 2، ص 643.

[21] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 535.

[22] ديوان بشار بن برد، جمع وتحقيق وشرح : محمد الطاهر بن عاشور، ج 1، د.ط، وزارة الثقافة الجزائرية، 2007، ص 335.

[23] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 414.

[24] نفسه، ص 415.

[25] سورة هود، الآية 44.

[26] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 45.

[27] نفسه، ص 45.

[28] سورة يونس، الآية 24.

[29] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 109.